كيف كافحت تركيا الأمية ؟!

للأستاذ احمد الشرباصى

لقد صدقت عزيمة مصر الخالدة — ملكا وحكومة وشعبا — أن تجاهد جهاد الصادقين، وتبلى بلاء الموقنين فى سبيل مكافحة الأمية والقضاء عليها، وبذلك نكتب فى تاريخنا القومى الحديث صفحة ذهبية عامرة تذكر فتشكر على ممر الأيام والدهور .

ولكن بيننا نحن المصريين بعض الذين يتخوفون من الإصلاح، ويستطيلون الشقة، ويخشون التعب، وتضعف عزائمهم عن السير إلى الميدان استبعادا للنصر وحذرا من المشقة، وهؤلاء قد ينظرون إلى مشروع مكافحة الأمية، وهو مشروع وطنى جليل، متكتب من أجله الكتائب، وتجيش الجيوش، وتعد العدد، وتجمع الهمم والعزائم، فيرونه بعيد التحقيق، يحتاج من الجهود والأموال والأزمان ما لا نطيقه فى هذه الظروف .

ولو أننا ذهبنا نلتمس العبرة لهؤلاء من التاريخ القديم أو الحديث، ونقدم لهم حركة شبيهة بهذه الحركة حتف بها أهلها وعملوا لها حتى أتموها وجنوا ثمارها، أو لو ذهبنا نورد لهؤلاء الوقائع والمشروعات المشابهة لمشروع مكافحة الأمية والتى نجحت الأمم الأخرى فى تنفيذها، لأوجدنا نوعا من الاطمئنان فى نفوس هؤلاء، ولجذبناهم إلى صفوف المجاهدين الأبرار فى ميدان محو العار الناضح لسمعة المصريين، ألا وهو الأمية الفاشية على الرغم من انتشار المدنية والتعليم . وأقرب الأمم صلة بنا فى هذه السبيل هى تركيا التى لا يعنينا الآن ما ارتأته لنفسها من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وإنما يعنينا ويهمنا أن نستعرض الخطط والوسائل التى تأدت بها إلى نجاحها فى مشروع مكافحة الأمية، وأن نتعرف ألوان الجد والنشاط التى حرصت عليها حتى حققت ما تريد، لننشبه بهم وننسج على منوالهم فى الصالح المفيد . فكيف كافحت تركيا الأمية ؟..!

هنا تظهر شخصية "كمال أتاتورك" زعيم تركيا الفتاة، ورئيس أركان حرب التعليم والثقافة فيها كما كانوا يسمونه ؛ فلقد توفرت فى مصطفى كمال خصال الزعامة التى لا يتسع المجال للإفاضة فيها، وإنما يهمنا أن نذكر منها قوة إيمانه، وجميل تفاؤله، وصدقه فى جهاده، وثباته على مبدئه، حتى إن المؤرخين يذكرون فى حرب تركيا مع اليونان أن مصطفى كمال طاف على جميع المناطق التى ستدور فيها رحى الحرب فتفقدها ودرسها دراسة الخبير المدقق، واستغرق فى ذلك يومين كاملين لم يسترح خلالهما لحظة ؛ وحدث عند ما وصل إلى مكان يعرف باسم "التل الأسود" أن عثر به جواده فوقع من فوقه، فتهشمت إحدى أضلاعه،

بفزعت حاشيته وتشاءم المتشائمون ، ولكن مصطفى المؤمن المتفائل لم يجزع ، بل قصد فى صباح اليوم التالى إلى المكان الذى وقع فيه ، وجعل يقول :

" فى نفس المكان الذى تهشم فيه ضلعى سأقضى على الأعداء ... هذه إرادة الله" ! ! .

ويكفيك لتصوير هذه الزعامة قوله : " سأظل أخدم أمتى بإخلاص إلى آخر دقيقة من عمرى " . وأن تسمع المؤرخ (داجوبرت) يقول عنه : " متى أراد مصطفى كمال شيئا فلا يصده عن عزمه ولا يثنيه عن إرادته غير الموت ، والموت وحده ! ... " .

ما كاد أتاتورك يطرد الأعداء من تركيا ، ويحرر أرض الوطن ، ويؤلف حزبه السياسى الكبير ، ويتولى زعامة الأمة ، حتى بدأ يعلم الشعب الأمى القراءة والكتابة ، فأخذ للأمر الجليل عدته ، بأن كلف المختصين والفنيين بكتابة تقريرات ضافية عن المشروع ووسائله وغاياته ، ثم درس هذه التقريرات دراسة المتمعن الخبير ، بعد أن اعتزل الناس إلى قصره فترة من الزمن ، ونظر وأطال النظر ، حتى استوفى نواحى المشروع بحثا وتنقيبا . ثم عرض الأمر على زملائه وأنصاره فأقروه ، وما هى إلا أيام حتى صدر قانون مكافحة الأمية فى تركيا .

لكن القوانين لا قيمة لها مالم يتحقق الإخلاص والصدق فى تنفيذها ، ولا يتحقق فيها الصدق والاخلاص إلا إذا بدأ بتنفيذها مشرعوها والداعون لها والمتزعمون حركتها ، وأظهروا الحماس العملى فى تسويدها ، وبذلوا كل غال ومدخر فى سبيلها .

إذن فليبدأ مصطفى كمال ... وابدأ بنفسك كما تقول الحكمة القديمة ...

ها هو ذا يتدثر بعزيمته وإيمانه ، ويقف فى أكبر قاعة بتركيا ، وأمامه مئات من الشعب فيهم الشاعر والأديب والعالم والصحفى والنائب والتاجر والصانع والزارع والطبيب والمحامى والقاضى وغيرهم . وكل منهم كأنما على رأسه الطير ، قد أنصت كل الإنصات ليستمع إلى أوامر الزعيم . ثم يخطب أتاتورك خطبة وجيزة يحدد فيها الغاية والوسيلة ، ثم يشرع فورا فى التنفيذ ، فيتناول الطباشير ، ويستخدم سبورة كان قد أعدها ، ويبدأ فى تعليم من يحتاج التعليم من الحاضرين ، وبعد أن يتم درسه الأول يستدعى بعض الحاضرين ، ويأخذ معهم فى التطبيق والامتحان ...

ثم تبدأ الحملة ضد الجهل والأمية فى كل مكان من مدن تركيا وقراها ، وعواصمها ودساكرها ، بعد أن أصدر الزعيم أوامره بتجنيد كل قادر على التعليم فى جيش المعلمين ، بلا استثناء لعضو فى حزب ، أو قائم بوظيفة ، أو مشغول بعمل ، بل لا بد من أن يقدم كل وطنى متعلم ضريبة العلم إلى هؤلاء الجهلاء ، والزعيم أتاتورك فى الطليعة . لا يقول لعشيه : اذهب وجاهد ودعنى فقد شغلتنى أمور الحكم ؛ بل يقول : تعال نجاهد معا ! ...

وها هو ذا صاحب كتاب "كمال أتاتورك" يصور هذه المواقف فيقول :

" . . الزعيم فى كل مكان من العاصمة ، فهو فى القصر يعلم الناس . وهو فى الطريق يعلم الناس ، وهو فى المساجد والقهوات ودور اللهو وصالات الرقص يعلم الناس ، ها هو ذا يمر فى طريقه بجماعة من الحمالين أو العمال ، فيدعو أحدهم و يسأله :

— هل تعلمت الحروف الجديدة يا صاح ؟ . .

فيجيبه الحمال أو العامل سلبا . .

فيخرج ورقة من جيبه وقلما رصاصا ، و يظل يعلمه الحروف (اللاتينية) حتى يجيدها فى بضع دقائق . . . ها هو ذا يدخل إحدى الصالات باسم الثغر وافر النشاط ، فلا يرقص مع الراقصين ، بل يصيح فى وسط الصالة : قفوا ! . . كفاكم رقصا ! . .

فيقف العزف و يجمد الراقصون فى أماكنهم ، فيحمل إليهم سبورته السوداء وطباشيره ، ويلقى عليهم "درسه" المعهود ، فيتعلمون الحروف الجديدة ، ثم يعاودون الرقص من جديد .

ثم يزور منطقة (جناق قلعة) حيث هزم الجيش الإنجليزى ، و يرفع سبورته السوداء حيث نصبت مدافعه من قبل ، و يظل يعلم الناس حتى يقرأوا و يكتبوا فى بضعة أسابيع ، و إنك لتراه ثمة والابتسامة لا تكاد تغادر شفتيه ، فتنسى ذئب أنقرة إلى حين ، وتطبع فى صفحة ذهنك صورة المعلم الأكبر" . . .

إنه يبتسم ويضحك ، و يقهقه كلما رأى أحد الفلاحين يتعثر فى كتابة الحروف الجديدة ، إنه " يقفش " الناس (قفشات) ظريفة ، فيعجب الحاضرون ببديهته الحاضرة ، وروحه الخفيفة ، وفى هذا (القفش) والضحك يساهم الناس و يتعلمون ! ! . .

ولقد اشترط أتاتورك لقبول الطالب فى جامعات تركيا أن يقدم شهادة صحيحة بأنه علم أميا القراءة والكتابة ، و إلا فلا يقبل ! ...

ولقد عرف أتاتورك ما للمدرسين من آثار كبيرة فى هذا المشروع ، فوجه إليهم هذه الكلمة البليغة التى تدفع الجبان إلى الجهاد والاستبسال ، قال :

أيها المعلمون . . . سيكون الجيل القادم أثرا من آثاركم الجليلة ، وعلى قدر مهارتكم وتضحياتكم سيكون هذا الأثر ، إن الجمهورية (التركية) تطلب رجالا قادرين ، هم خلاصة الإنسانية فكرا وعلما وجسما ، وهذا الذى تطلبه الجمهورية فى أيديكم :

إن المعلمين — والمعلمين فحسب — هم الذين ينهضون بالأمم ، فإلى الأمام إلى الأمام ودائما إلى الأمام ! ...

وقد يظن ظان أن مكافحة الأمية فى تركيا قد شغلت الشعب أو الحكومة أو الموظفين أو الجنود عن واجباتهم ، وهذا خطأ ، فقد كانت تركيا تعرف لكل وقت عمله ، ولم يكن يشغلها واجب عن واجب ، فإذا جاء أوان التعليم ، فالشعب كله متعلم ومعلم ، وإذا ما انتهى الزمن المحدد للتعليم انصرف كل إلى ما يخصه ويعنيه ، وحسبك أن تعلم أن الفترة التى قضتها تركيا فى مكافحة الأمية لم تجن مطلقا على الناحية العسكرية التى قد تعتبر أبعد النواحى عن مسألة القضاء على الأمية .

وها هو ذا أحد الأتراك يصور حياتهم العلمية والعملية حينئذ فيقول :

" لا تكاد تنقضى أيام الدراسة حتى يصدر إلينا الأمر بالتوجه إلى المعسكر ، فنذهب إليه حيث نلبس ثياب الجنود ، ونشرع فى التمرن على إطلاق الرصاص ، وحياتنا فى المعسكر حياة الجندى المتأهب للقتال ، نقوم مع الشمس على هتفات (البورى) ، وننام فى الليل فريق منا ويحرس النائمين فريق ، وفى كل يوم تلقى علينا محاضرات فى أصول الحرب الحديثة ، فى الحرب البرية والبحرية والجوية ، فى البنادق والمسدسات ، والمدافع والسيوف ، والخيول وضربات الحرب ، والتانكس ، والغازات السامة والغازات المحرقة ... الخ " .

فكان من نتيجة هذا الجد والجهاد أن ارتفعت نسبة المتعلمين فى تركيا من ١٠ ٪ إلى ٩٠ ٪ ما بين سنتى ١٩٢٨ و ١٩٣٥ ، أى فى نحو سبع سنوات ، على الرغم مما كان هناك من المشروعات الوطنية الضخمة التى قام بها حزب أتاتورك إبان مكافحته للأمية فى تركيا .

فلنعتبر إذن باخواننا الأتراك ، ولنقتد بهم فى جهادهم واتحادهم ، ولير بح الخائنون على أنفسهم ، فيد الله مع الجماعة ، والله الذى جعل مصر كنانته لن يرضى لها أن تبقى جهلة أمية ، بينما استضاء العالم كله بنور العلم والعرفان .

وهذه تركيا منذ سنوات قد كافحت الأمية ونجحت فى كفاحها ، ولم يصدها عقبات ، ولم يحل بينها وبين غرضها تخرصات ، فليتقدم قواد هذا المشروع الوطنى الكبير على بركة الله ، فإن النجاح قريب يكاد يلمسه المؤمنون بأيديهم ، وإنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ، وما ذلك على الله بعزيز . . .

أحمد الشرباصى
خريج كلية اللغة العربية